

القوة الإيجابية في العالم

الإسلام الكامن مجامع اللغة ووعق العفيدة

لأستاذ عبد الرحيم الساج

من علماء جامعة الأزهر

ويمكن أن نعبر عن هذا الامتداد النادر بأكثر من طريقة فنقول : ان الإسلام يمتد في قوس محدد من بكين الى كازان الى بلغراد في الشمال ، أو في قاطع من فرغانة الى غانة - كما كان يقول مؤرخو الإسلام - أو في قاطع آخر من جبل طارق الاطلس الى سنغافورة جبل طارق الهاديء ، أو من مالايا بالاندلس الى ملقا بالملايو ، الى قبال المورو بالفلبين ، كذلك يمكن أن تحدد قاعدة العالم الإسلامي في الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال ، حتى قبائل التاجال بالفلبين ، أو من غينيا الى غينيا الجديدة ، أما الطول فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزي والليمبوي .

وتلك أبعاد لا تقل بحال عن نصف مساحة العالم القديم .

فالإسلام دين عالمي أو كوكبي - بلا مرأى - رغم ما يدعيه البعض من أنه دين جزئي ، أو اقليمي أحيانا ، أو من أنه دين « افريقي » أحيانا أخرى . إذ يوشك الا تكون هناك دولة في عالم اليوم ، لا يتمثل الإسلام فيها ولو ببضعة عشرات من الآلاف كما في استراليا وغرب أوروبا مثلاً .

وبالعالم الإسلامي قابليات بشرية فائقة والمسلمون يمثلون تقريباً 15 ٪ من مجموع سكان هذا الكوكب الذي يبلغ اليوم قرابة 3300 مليون نسمة .

ان العالم الإسلامي يربض على الثروات المدنية الهائلة ويتربع على الكنوز الثمينة ، ويملك من الحقول البترولية ، أجدائها نفعا ، وأكثرها ثراء وسخاء ، وأقواها تدفقاً ودفعاً . ويتبوا استراتيجية هامة ، ويشغل من خريطة الدنيا حيزاً جغرافياً عظيماً .

فالاطار الخارجي الاقصى للعالم الإسلامي يصل شمالاً حتى اعالي الفولجا غير بعيد عن دائرة العرض 60 درجة شمالاً ، ويتراعى جنوباً حتى نهاية افريقيا عند الراس على خط عرض 35 درجة جنوباً .

أما شرقاً بفرب فنحن مع الإسلام من خط طول 120 درجة شرقاً حيث الفلبين الى حوالي 20 درجة غرباً ، عند الراس الاخضر ، فهذه شقة تبلغ 95 درجة بالطول ، ونحو 140 درجة بالعرض أي حوالي ربع وثلاث محيط الارض على الترتيب ، أو ما يعادل نصف دورة الليل والنهار ، ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي .

ومحيط العالم المسلم يتحدد اساساً بنصف الكرة الشمالي أولاً ، وينصف الكرة القديم ثانياً ، فالإسلام جنوبي خط الاستواء اطراف أو أصابع ثانوية وهو في العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة .

نفسه : فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التي جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وتفتقه .

العقيدة التي تقر التوحيد الخالص والتنزيه البالغ ارقى صورة واشكاله ، عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذي لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله « قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد »

ولا تبيح تلك العقيدة الاسلامية للانسان ان يتعلق بالمخلوقات او يدعو ويعبد غير الخالق الذي ابدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس او يعترف بوجوده في هذا الكون الفسيح « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » ، والاسلام من جهة اخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الانسان ومصالحها الحيوية في حدود الحق والفضيلة والشرف وباعتبار هاتين الحقيقتين - التوحيد الخالص ، والاجتماعية - امكن للاسلام ان يقيم المجتمع على أسس القيم الاخلاقية العليا ، وان يرضي مطالب الروح والجسد ، حتى ترافقا في اعتدال ، وكونا حقيقة الانسان المهذب والمؤمن الكامل .

وبالجمع بين سمو الروحي والتهذيب الاجتماعي امكن للاسلام ان ينتشر في اركان الدنيا بالعدل والحق والاخلاق وسمو المبادئ .

والاسلام وليد العقيدة الرائقة التي تطهر النفس وتذكي القلب وتربي الخلق وتغذي العقل وتوقف الفريزة عند حدها ، وتعطي كل مطمح من مطامح الانسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الاسلامية : عقيدة استعلاء من اخص خصائصها : انها تبعث في روح المؤمن بها الاحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة في غير اغترار ، وشعور الاطمئنان في غير تواكل .

والعقيدة الاسلامية قوة لا تدانيها قوة في شد الاعصاب وشحن الدماء بالتضحية والفداء وتكران الذات . واثر الايمان بالعقيدة السليمة يبرز بوضوح في الدعوات التي غيرت وجه التاريخ . لذا يعتمد اصحاب الدعوات الى اختيار العناصر المشبعة بروح العقيدة ، ويصرفون نظرهم عن الكثرة فهم لا يريدون (الكم) بل يريدون (الكيف) .

وبعبارة اقرب واوجز ، يمكن ان نقول : ان واحدا من كل ستة اشخاص يدين بالاسلام ومناطق العالم الاسلامي تعد - عند الباحثين والدارسين - من اقاليم النمو السكاني السريع .

فالعالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسفيكي شرقا ، الى المحيط الاطلسي غربا ، مجتازة جاليات ودولا اسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ، ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بانها :

* تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان ، بعيدة عن القطبين ، وسالمة من الاعاصير والظوفانات والثلوج والبراكين ، ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

* وانها تمتلك من شواطئ البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانئ العالم ، كما بها من الانهار والمنابع ما يجعلها من اخصب المناطق واكثرها ازدهارا ونماء .

* وان فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من اغناء الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء .

* وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اسمى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

* وان التجانس المذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة في منأى عن الانشقاق الملحوظ في المذاهب الاخرى ، ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وتفتحا وتقدما .

وتلك امور تجعل العالم المسلم قوة ايجابية مرهوبة الجانب ، مخطوبة الود ، يتهيب العدو بأسها ، ويخشى سلطانها ، وتجعله أيضا مهيا للاسلام في بناء الحضارة الانسانية ، واعادة صنع الحياة ، وانقاذ البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والاحاد .

واذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والموقع ، وما لهما من خصائص ومميزات ، وما بهما من كنوز وخيرات ، ومن الحديث عن خصائص العالم الاسلامي التي بز بها غيره ، الى الحديث عن الاسلام

ذلك ان العقيدة هي الروح التي تحرك الجسد وتبعث فيه الحياة ، والرغيل الاول من المسلمين كانوا اساتذة الدنيا بقوة عقيدتهم وايمانهم بربهم . وقد لاقوا آلاما شديدة لو صبت على غيرهم لتغير موقفهم ؛ ولكن الايمان بالعقيدة حين يخالط قلب المسلم يحيله الى اتسان فوق العادة .

فبلال الحبشي ، وعمار بن ياسر ، ومصعب بن عمير ، وصهيب الرومي . ضرربوا الرقم القياسي في صلابة العقيدة وصدق النية وقوة الايمان . وهم الذين لم يدرسوا كتب الفلسفة ولم يقرأوا علوم اليونان والرومان . ولكنهم درسوا القرآن الكريم وتعلمذوا في مدرسة محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة .

وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وطارق بن زياد وموسى بن نصير قادوا الدنيا وفتحوا البلاد وهم الذين لم يدرسوا في الكليات ولم يقرأوا علوم اليونان والرومان . ولكنهم درسوا القرآن العظيم وتعلمذوا في مدرسة محمد رسول الله عليه السلام .

فالايان بالعقيدة هو الجذوة المتقدة والقوة الاخلاقية ، التي تكون النفوس وتشحنها بأنبل القيم واسماها ، وتبنيها على الحق والاباء والعزة والكرامة . والاسلام : دين ومجتمع وحضارة :

دين : لانه عقيدة توحيد وتنزيه لله - سبحانه وتعالى - تعتقدها القلوب وتدين بها ، وتنطق بها الالسنة في كل صلاة وذكر ، وتتركى بها النفوس ، فتنجلي عنها كل شدة وبؤس .

ومجتمع : لانه ليس طائفيًا ولا عنصريًا ، ولا متعصبا ولا جاهلا ، ولا جامدا ولا خامدا ولا يتوخى استعباد جنس لجنس ولا قوما لقوم ، ولا طائفة لطائفة ، « انما المؤمنون اخوة » . « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن » .

والفرد في المجتمع الاسلامي جزء من كل يكمله ويكمل به ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمي به ، وليس في الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد ، لان هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام في الاصلاح العام ، والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الذاتية للافراد باعتبارهم مدينين بوجودهم لله

ومسؤولين امامه عن اعمالهم ، « كل نفس بما كسبت رهينة » . « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « وقل اعملوا فسيري الله عملكم » « ولا تزر وازرة وزر اخرى » ، والاسلام الحنيف حينما جعل الفرد مسؤولا امام الله عن اعماله والمسؤولية تقع عليه وحده الاسلام جعل ذلك ليرفع من قيمة الفرد الذاتية ويصل به الى اعمال الخير والدفن البناء وفي الوقت نفسه الفرد لبنة من لبنات المجتمع المسلم ، وعضو من اعضائه ، يعمل لصالح الجماعة ، والجماعة تسمى لخير الفرد .

والاسلام لا يعترف بالقهرية التي يدمج بها الفرد في المجتمع قسرا ورغما عنه كما في الشيوعية ، لان الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغني عن الفرد ان لم يخدم غرض الدولة او ان لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش .

فالاسلام دين اجتماعي يرقى بالمجتمع الى اسمى ما قدر من سلام ورخاء وتعاون وتكافل وتساند وتوادد « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » .

قال المستشرق الفرنسي (ماسينيون) : « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال . وهو يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الاولية الضرورية ، ويقف في نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري .

والاسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام من ماض حافل بالنجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات » .

وقال المؤرخ الانجليزي (توماس كارليل) : « وفي الاسلام صفة اراها اشرف الصفات واعظمها ، وهي المساواة بين الناس ، وهذا يدل على صدق النظر وصواب الرأي ، والاسلام لم يقنع بجعل الصدقة سنة محبوبة بل جعلها فرضا على كل مسلم وجعلها قاعدة من قواعد الاسلام » .

وقال العلامة (ليود وروس) : « ولقد وجدت في الاسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طرا ، الاولى قول القرءان « انما المؤمنون اخوة » والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال » .

آراء كوكبة من الباحثين وكبار المستشرقين فيها انصاف واعتراف بقيم الاسلام ، وذلك حينما يكتبون لمرضاة العلم في ذاته . وحين لا تقتادهم السطحية .

وحضارة : لانه متصل بشؤون الحياة في الحكم والفكر ، والاسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة تطور الازمان واختلاف البيئات والمجتمعات ، وله من القدرة والقوة ما يمكنه من التبلور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ، ولا يتعارض مع طبائع الامم في حركتها الداخلة الممتدة عبر العصور .

والاسلام ينظر الى الحياة نظرة كاملة وشاملة ، ويتدخل في جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالإضافة الى انه دين يهتم بالجانب الروحي من الانسان ويريد منه ان يتحمل الخلافة في الارض بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها ، واقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا الى التعاون والتبادل والمودة والالفة .

ويمكن ان نقول بعبارة اوجز : انه ما من شيء بهم الانسانية ويشغل بالها ، وياخذ قسطا من عنايتها الا وله في الاسلام هدى وبيان واهتمام .

وما من شيء يلامس حياة الناس او يتعمقها الا وله في الاسلام عرق ينبض واصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الاسلام بوحدة العقيدة ، وجامعة اللغة العربية ، واشترك المجتمع في مظاهر العبادات والمعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

ونخلص من كل ما سبق : الى ان الاسلام دين عالمي . ولهذه العالمية كان الاسلام وما زال ملائما لجميع الاجناس البشرية ، وقد اثبت منذ ظهوره حتى اليوم انه الدين الذي يتلاءم مع كل عقل وتفكير ، ويتجاوب مع تطور الزمن .

وان آداب وتعاليم الاسلام كفيلا بان تجعل العالم الاسلامي في وضع يسمح له ان ينمي فلسفته الخاصة به ، المتميزة عما عداها والتي تنبع من الفكر الاسلامي النير ، وتستمد عناصر وجودها من كتاب الله القران الكريم وسنة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . وذلك دون ان يتبع المجتمع الاسلامي اي شكل من الاشكال التي يعافها الاسلام وتمجها الفطرة الانسانية الصافية .

واذا كان المجتمع الاسلامي ، له من المميزات ما لا يتوفر لغيره ، وله من التعاليم والقيم والآداب ما يسمح له ان تكون له فلسفته الخاصة بوجوده . فهل يمكن لحضارته ان تعود الى اشراقها من جديد فننقد الانسانية من هوة الغوضوية وتقتشع عنها السحب الداكنة والاعاصير المقلقة ، وتزيل الاصفاذ والقيود المحيطة بكل تقدم ، والمعركة للنهوض ، وتميد للعالم الانساني السلام الحقيقي والحق والعدل والنور والامن والاطمئنان ؟ .

ان تعاليم الاسلام الفراء سالحة لكل زمان ومكان، وفي الاصلاح الاسلامي من كليات وجزئيات ما هو كليل بقيام مجتمع انساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والاخلاص ، ولكن ذلك رهين برجوع المسلمين الى منابع عزهم ومجدهم والتمسك بأسس القيم والاخلاق الاسلامية . والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابضة بالسمو ، المليئة بالجدوات المتقدة التي لا يخبو ضوءها قال الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والعلمية - كما كانوا من قبل - اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة في الاسلام والعلوم التي حث الاسلام على الاخذ بها » .

وقال العلامة وامبري : « ان روح نظام المسلمين هو الدين ، والذي احياهم هو الدين ، والذي يكفل سلامتهم في المستقبل هو الدين ليس الا » .

ويرى الدكتور فيليب حتي « ان الشروق الاسلامي هو اليوم في مطلع دور جديد في حياته العلمية ، كما انه في فجر طور جديد في حياته السياسية ، وهو دور يمكن ان نسميه : دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية . ولنا ان نتكهن ان ابناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم في خدمة المدنية والانسانية؛ وبما يجعلهم خلفاء جديرين بالميراث الذي تركه لهم اجدادهم » .

إذا اجتمعت كلمتهم في ظل العمل بالاسلام . كان ذلك خطرا على الاستعمار والاستعباد والظلم .

وعلى اي حال وسواء كان هذا او ذاك فان العالم العربي والاسلامي لا ينهض الا برسائنه التي وكلها اليه رسول الانسانية محمد عليه الصلاة والسلام والايمن بها والاستماتة في سبيلها ، وهي رسالة مشرقة قوية واضحة لم يعرف العالم رسالة اعدل منها ، ولا افضل ، ولا ايمن للبشرية منها .

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتحاتهم الاولى ، والتي بلغوا بها ذروة ما قدر لهم من سؤدد ومجد وسلطان .

والدكتور سميث استاذ ورئيس قسم الديانات بكلية ووتر بولاية اوهايو يرى : « انه لو امكن اثاره التماسك الاسلامي في سبيل اغراض ايجابية وتكتيل الامم الاسلامية الكثيرة المختلفة في وحدة حية لامكن ان تصير هذه الوحدة قوة ايجابية في العالم » .

وكلام اولئك الافذاذ من ائمة البحث وكوكبة الاستشراق قد يكون اتصافا ولمرضاة العلم في ذاته بعيدا عن السطحية والاغراض التعصبية .

وقد يكون بمثابة التحذير لاقوام اوربا الحاقدة على الاسلام والمسلمين . ليعرف الاوربيون ان المسلمين

